حقيقة الخلاف بين الشيخ الطيب العقبي ومشايخ الجمعية رحمهم الله

هل كان خلافا عقديا أم خلاف أفكار ؟!

حدثني جدي لأمي رحمه الله -وقد كان أميا لا يقرأ- أنّه حضر درسا للشيخ الطيب العقبي رحمه الله بمدينة عين بسام سنة 1936م حدّثهم فيه عن التوحيد وشرك الاستغاثة، وأنه عاش بعد ذلك عمره متجنبا لمهالك دعوة غير الله والاستغاثة بهم، وأنّه يعجب كل العجب ممن يترك دعاء ربه الرحيم إلى دعاء خلق من مخلوقاته ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا.

قدمت بهذه المقدمة كمثال عملي لأفضال هذا الشيخ النحرير رحمه الله على هذه الأمة في أحلك ظروفها وقد سألني الأخ المكرم نجيب قويزي أن أحدّثه عن خلفية الخلاف الذي وقع بين الشيخ وبين مشايخ الجمعية رحمهم الله مستفسرا عن قالة من قال إن خلافه معهم من جنس خلاف العقائد .

وأنا لم أطلع على قول القائل وأي خلاف في العقيدة يقصد، فإن كان يقصد إثبات مطلق الاختلاف فهذا ليس بالاكتشاف فإنّ فطرة الخلق تأبى عليهم تطابق الأفكار حتى بين الشيخ رحمه الله ومريديه فكيف باجتهادات الأقران، وإن قصد الاختلاف الذي يصلح معه نسبة الاختلاف العقدي بين الرجل والجمعية فهذه فرية صلعاء .

وأنا عن نفسي أزعم أني لم أعثر على أثر هذا الخلاف المدعى فيما كتبه القوم وما سطره من عاصرهم وتكلم عن حالهم قبل نشأة الجمعية وبعدها وبعد خروج الرجل رحمه الله منها، وربّما يتكئ البعض لحادثة خروج الرجل رحمه الله من الجمعية سنة 1939 ثم خلافه الشديد بعد ذلك مع الشيخ الإبراهيمي رحمه الله كدليل لإثبات صحة الدعوى، ولكن الوقائع لا تساعد على الاستنتاج الذي يستنتجه القوم، فإنّه لم يأت في نص استعفاء الرجل رحمه الله من المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين التي ناضل فيها منتصرا لمبادئها لسنين طويلة مما يرومه القوم بل غادر الرجل رحمه الله الجمعية مصرحا أنه وفيٌّ لمبادئها ورسالتها قائلا: "هذا مع وعدي لهم بأني سأبقى محتفظا لنفسي بحق العضو العامل في هذه الجمعية التي أنا أول المؤمنين بمبادئها الحق الذي سأبقى عليه ما بقيت، وبقيت المبادئ الخالدة إلى آخر نفس من حياتي".

قلت (محمود): طلائع الخلاف بين الشيخ وبعض المصلحين رحمهم الله بدأت مذ عودة الشيخ رحمه الله من الحجاز، وقد كان الشيخ رحمه الله من الكتّاب البارزين في جريدتي الشهاب والمنتقد للشيخ ابن باديس رحمه الله، وقد نشأ العقبي رحمه الله في بيئة حجازية خالية من البدع، أما ابن باديس رحمه الله فهو ابن قسنطينة العريقة وأكثر اطّلاعا وتعرفا على عقلية الجزائريين وظروف عيشهم وطبيعة حياتهم ومستوى علمهم، فجاء أسلوب العقبي رحمه الله شديدا قاسيا على المخالفين فيما غلب على ابن باديس رحمه الله اللين والمرحلية والتؤدة.

غضب العقبي لرأي الشيخ ابن باديس رحمهما الله القاضي بوقف الحملات الشديدة على الطرقية مرحليا في نهاية العشرينيات، وأضرب عن الكتابة في الشهاب والمنتقد وسافر إليه ابن باديس رحمه الله إلى بسكرة يسترضيه فما طاب خاطره حتى أعيد فتح تلك الجبهة من جديد.

خالف العقبي رؤية ابن باديس رحمهما الله في طبع وثائق الجمعية وتوزيعها على الحجاج في مواسم الحج واعتبر ذلك تبذيرا لمال الجمعية ثم جاءت قضية البرقية الملعونة التي أنهى العقبي على إثرها انتسابه للجمعية، وحاصلها أن فرنسا أوعزت عبر بعض قنواتها إلى رجال الجمعية أنه يليق بالجمعية بمناسبة ظروف الحرب العالمية أن تبعث برقية باسمها وباسم المسلمين في الجزائر إلى فرنسا تدين فيها الدكتاتورية النازية وتؤيد فيها فرنسا في حربها المحتملة مع النازية، عارض ابن باديس رحمه الله الأمر ورأى أن يعرض البرقية على الدورة العادية للجمعية المنعقدة ما بين 23 ـ 25 سبتمبر 1938 م، وكان العقبي رحمه الله يرى أن من المصلحة الوطنية ومصلحة الجمعية، إرسال برقية التأييد هذه، وقد شرح العقبي رحمه الله مغزى ذلك بقوله: "بل أرى إرسال البرقية، وإذا لم تقع الحرب كنا قد تقربنا إليها ـ أي فرنسا ـ ولا بد أن تقوم بمكافئتنا، وإذا وقعت الحرب أمنّا شرها وضمنّا بقاء نادينا وجمعيتنا"، والظاهر أن النقاش قد طال حول البرقية، وعرض ابن باديس رحمه الله البرقية على التصويت في اجتماع المجلس الإداري، وعندما أخذت الأصوات كانت 12 ضد إرسال البرقية مقابل 4 لإرسالها، وانتهى الاجتماع بقرار عدم إرسال البرقية، ثم قدمت السلطات الفرنسية البرقية للعقبي رحمه الله لتوقيعها، لكنه رفض ذلك عندما رفض رئيس الجمعية ابن باديس رحمه الله توقيعها، ولعل رفض العقبي رحمه الله توقيع البرقية يعبر عن صدق نيته تجاه الجمعية، ويبعد عنه تهمة التملق للإدارة الفرنسية حسب تعبير ابن باديس رحمه الله، وبعد يومين من الاجتماع أرسل العقبي رحمه الله كتاب الاستعفاء لابن باديس رحمه الله.

عبّر شاعر النهضة محمد العيد آل خليفة رحمه الله عن تلك الظروف معتبرا كل من الطرفين مصيبا في اجتهاده ومحقا فيما وصل إليه فقال:

خصمان فيما يفيد الأمة اختصما ** إياك أن تنقص الخصمين إياك

كلاهما في سبيل الله مجتهد ** فلا تلومن لا هذا ولا ذاك

ثم أنت إذا نظرت لمدائح ابن باديس وشيوخ الجمعية رحمهما الله التي رددوها مرارا في حق الشيخ رحمه الله ونظرت لنشاط الشيخ رحمه الله خارج الجمعية وما رثى به الشيخ ابن باديس رحمه الله، لا تجد أثرا لهذا التنازع العقائدي بين الرجلين رحمهما الله، بل يتأكد عندك بما لا مزيد عليه أن خلافهما كان حول منهج الإصلاح وطريق التغيير الأمثل للعودة بالمجتمع للدين الأول ولم يكن أبدا تنازعا على شرعية امتلاك التأويل الصحيح للدين الأول الذي بعث به النبي ﷺ.

وأما خلاف الشيخ العقبي والشيخ الإبراهيمي رحمهما الله -وقد ذكر الدكتور الهاشمي التيجاني رحمه الله طرفا منه- ومع أنه كان خلافا صاخبا عالي الصوت فإني أحسب أنه من جنس تدابر الأقران وتنافسهم، ولا أقدر أن ألمح ملامح خلاف عقدي بين الرجلين رحمهما الله.

أحب الحق ولكن لا أحب العجلة، أحب الهمة في الدعوة ولكن لا أحب التسرع فيها نفسي تميل لطريقة ابن باديس رحمه الله ونهجه وأناته، أسلم للشيخ العقبي رحمه الله بأفضاله وأوله فضله على جدي رحمه الله، وأحبه وأواليه ولا أقول فيه إلا خيرا، وهذا لا يمنع عندي ترجيح نهج الجمعية على نهجه.

كتبه: محمود حديبي